رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالميّة

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة التاسعة
العدد الثاني

رمضان ١٣٧٦ ﻫ
ابريل ١٩٥٧ م

منزلات المستشرقين

للأستاذ عبد الوهاب حموده

— ٢ —

ألف (جولد تسيهر) كتابه: « المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ».

فى هذا الكتاب عند بحث القراءات، زلات لا يمكن السكوت عليها، وقد كان كل همّ المؤلف أن يدلل على أن الاختلاف فى القراءات إنما كان عن هوى من القراء، لا عن توقيف ورواية. وهذا هو سر خطئه فى منهجه، حيث لم يعتبر أن القراءات إنما هى رواية بالسند الصحيح، وهى سنة يتبعها الآخر عن الأول، ونسى أن القراء لم يأخذوا قراءاتهم إلا بعد بحث وتمحيص للسند، وللرجال الذين أخذوا عنهم، ونسى أيضاً مقياسهم الذى وضعوه ليميزوا بين صحيح القراءة وسقيمها، وبين متواترها وشاذها، ثم نقله عن كتب غير جديرة بالنقل منها، والارتكان إلى آراء ضعيفة لا يقيم لها علماء القراءات وزنا.

هذا إلى خطئه فى فهم النصوص، وعجزه عن الغوص إلى أعماقها وفهم أسرارها.

يقول فى ص ٤: « والقسم الأكبر من هذه القراءات يرجع السبب فى ظهوره إلى خاصية الخط العربى، فإن من خصائصه أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة قد يقرأ بأشكال مختلفة تبعاً للنقط فوق الحروف أو تحتها، وعدم وجود الحركات النحوية، وفقدان الشكل فى الخط العربى جعل للكلمة حالات مختلفة كانت السبب الأول فى ظهور حركة القراءات فيما أهمل نقطه أو شكله من القرآن ».

هذا الرأى خطأ من أساسه، فإن القراءات رويت وتدوولت وشاعت قبل تدوين المصاحف بالخط العربى.

كما كان القرآن محفوظاً فى الصدور قبل تدوين المصاحف ، وجمع القرآن بقراءاته ثم حين دُونت المصاحف لم يكن النقط قد عرف ، ولا الشكل اخترع ، فظهرت حركة القراءات قبل النقط والضبط ، فكانت قراءتهم للكلمة على حسب ما يروون وينقلون ، لا على حسب ما يقرءون فى المصاحف .

يقول أبو شامة فى شرح الشاطبية :

والقراءة نقل فما وافق منها ظاهر الخط كان أقوى ، وليس اتباع الخط بمجرده واجباً ما لم يعضده نقل ، فإن وافق فيها ونعمت ؛ ذلك نور على نور ، كما فى قوله تعالى فى سورة الحج « ولؤلؤاً » فقرأ عاصم ونافع بالنصب هنا وفى فاطر ، وقرأ الباقون بالجر فيهما ، وقد رسم بالألف فى الحج خاصة دون فاطر ، فلو اتبعوا الخط والرسم فقط ، لقرءوا ما فى الحج بالألف ، وما فى فاطر بالخفض .

ومن أخطاء (جولد تسيهر) أيضاً أنه كان يحّمل القراءة ما لا تحتمله ، ويتطوع فى تفسير السبب الذى حمل القارىء على اختياره هذه القراءة ، والقارىء نفسه برىء من هذا الاستنباط ، بل ويصرح أحياناً بما يخالفه ، ولكنه حرص (جولد تسيهر) على التشكيك فى القراءات ، وإثبات أنها من محض الرأى لا النقل ، يجعله يسلك ذلك السبيل .

من ذلك ما ذكره من قوله فى ص ٥ : « وقد رأى بعض شيوخ المفسرين (قتاده البصرى المتوفى سنة ١١٧ هـ) أن الأمر بقتل النفس ، أو قتل العصاة فى قوله تعالى : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » (٥٤ البقرة) هو من القسوة والشدة بحيث لا يتناسب مع الفعل ، فقرأ : « فأقيلوا أنفسكم » أى حققوا الرجوع والتوبة من الفعل بالندم على ما فعلتم ، وفى هذا المثال نرى وجهة نظر موضوعية كانت سببا أدى إلى القراءة المخالفة » .

أرأيت إليه كيف يصور قراءة قتادة أنها من اجتهاده وعدم رضائه على المعنى الذى تدل عليه القراءة الأخرى ، ولا ندرى من أين استقى (جولد تسيهر) وجهه نظر قتادة هذه ؟ وكيف جاز أن يعتبر هذه القراءة من قتادة رأياً ارتآه ليناسب المعنى ،

ونسى أن الأصل فى القراءة ، النقل والرواية ، وأن قتادة لم يذكر فى أى مرجع مما هو تحت أيدينا من كتب التفسير أو كتب القراءات هذا الرأى ، بل الأمر بالعكس.

ذكر أبو حيان فى تفسيره : وقرأ قتادة فيما نقل المهدوى وابن عطية والتبريزى وغيرهم « فأقيلوا أنفسكم » وكان المعنى أن أنفسكم قد تورطت فى عذاب الله بهذا الفعل العظيم الذى تعاطيتموه من عبادة العجل ، وقد هلكت فأقيلوها بالتوبة والتزام الطاعة ، وأزيلوا آثار تلك المعاصى بإظهار الطاعات .

وذكر ابن كثير فى تفسيره ٩٢ / ١ : وقال قتادة : أمر القوم بشديد من الأمر فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضا ، حتى بلغ الله فيهم نقمته ، فسقطت الشفار من أيديهم فأمسك عنهم القتل ، فجعل لحيّهم توبة ، وللمقتول شهادة .

وذكر ابن جرير فى تفسيره ٢٢٨ / ١ : حدثنا الحسن بن يحى قال : أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن الزهرى وقتادة فى قوله : (فاقتلوا أنفسكم) قال : قاموا صفين ، فقتل بعضهم بعضاً حتى قيل لهم : كفوا . قال قتادة : كانت شهادة للمقتول وتوبة للحى .

وذكر القرطبي فى تفسيره ٣٤٢ / ١ : قال تعالى : « فاقتلوا أنفسكم » قال أرباب الخواطر : ذللوها بالطاعات وكفوها عن الشهوات ، والصحيح أنه قتل على الحقيقة هنا قال سفيان بن عينية : كانت توبة بنى إسرائيل القتل ، وقرأ قتادة (فأقيلوا أنفسكم) من الإقالة أى استقيلوها من العثرة بالقتل .

قال جولد تسيهر : « وتتجلى هذه الظاهرة ـ ظاهرة القراءة بسبب أن المعنى غير مستساغ فى نظر القارىء ـ فى قوله تعالى فى الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة الفتح حيث يخاطب الله النبى قائلا : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا »

« فقرأ بعضهم بدلا من (وتعزروه) بالراء (وتعززوه) بالزاى من العزة والتشريف » .

« وإنى أرى فى الانتقال من تلك القراءة إلى هذه القراءة - وإن كنت لا أجزم بذلك - أن شيئاً من التفكير فى تصور أن الله قد ينتظر مساعدة من الإنسان قد دعا إلى ذلك » .

ثم أحس (جولد تسيهر) أن هذا الرأى منقوض بما ورد فى الآيات المتعددة من معنى التعزير ، وهو التقوية ، والنصر منسوباً إلى الله ، فلجأ إلى علة أخرى وهى قوله : « والتعبير بعزّر تعبير حاد يقوم على أساس من المساعدة المادية » مع أن اللغة العربية لا تفرق بين « عزّر ونصر » .

جاء فى اللسان ٦/٢٣٦ : « عزّره : فخّمه وعظّمه وقوّاه ونصره . قال الله تعالى : « لتعزروه وتوقروه » وقال تعالى : « وعزرتموهم » نصرتموهم - قال إبراهيم السرى : وهذا هو الحق .

« والتعزير فى كلام العرب : التوقير والتعزير النصر باللسان والسيف . وفى حديث المبعث ، قال ورقة بن نوفل : إنْ بُعث وأنا حى فسأعزره وأنصره » .

وذكر الطبرى فى تفسيره ١/٤٧ : معنى قوله « وتعزروه » تنصروه . قال ابن زيد : معنى التعزير فى هذا الموضع التقوية بالنصرة والمعونة ، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال .

ثم انتقل (جولد تسيهر) إلى الكلام على الزيادات التى ذكرها بعض الصحابة تفسيراً لما غمض من الآيات ، وقال فى جرأة الذى يريد أن يسمم الآبار ، ويزعزع الإيمان بالكتاب الكريم - (ويأبى الله إلا أن يتم نوره) :

« لم يتضح بعدُ تمام الوضوح هل هذه الزيادات - فى الحقيقة - من الأصل نفسه أو انها ليست منه ، وكان القصد منها مجرد الشرح والتفسير ؟ »

« فاعتبرها بعض المتأخرين انها من الأصل . وتبريراً لهذا العمل - أعنى إثبات التفسير بجانب الأصل - روى عن الصحابة أنهم أجازوا ذلك ، وهو جواز إثبات بعض التفسير على المصحف وإن لم يعتقدوه قرآنا » .

أرأيت إلى التناقض ، فمرة يقول : اعتبرت الزيادة من الأصل ، ومرة يقول : وإن لم يعتقدوه قرآنا .

وحقيقة المسألة هو ما ذكره ابن الجزرى ١٣١ / ١ النشر :

« نعم ربما يدخلون التفسير فى القراءة إيضاحاً وبياناً لأنهم محققون لما تلقوه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قرآنا ، فهم آمنون من الالتباس ، وربما كان بعضهم يكتبه معه ، لكن ابن مسعود كان يكره ذلك ويمنع منه » .

هذا ، وهذه الزيادات جميعها المخالفة للمصاحف العثمانية قد اعتبرت إما أخبار آحاد ، والقرآن لا يثبت بخبر الآحاد ، وإما أنها نسخت فى الفرصة الأخيرة ، وإما أنها تفسيرات زيدت على النص .

ثم تكلم (جولد تسيهر) بعد ذلك على أن هناك نوعا من القراءات دعا إليه الترادف فى اللغة .

وكنا نود لو عرف أن هناك نوعا من القراءات يسمى القراءات الشاذة ، منها هذا النوع من القراءات ، وقد رُد ما دام مخالفاً للمصاحف العثمانية التى أجمع الصحابة على ما فيها ، فضلا عن أنها أخبار آحاد لا يثبت بها قرآن ، أو هى من قبيل التفسيرات التى ذكرناها فيما سبق .

قال ابن الجزرى فى كتابه « المنجد » ٢١ / منجد المقرئين : « فنحن نقطع بأن كثيراً من الصحابة رضوان الله عنهم كانوا يقرءون بما خالف رسم المصحف العثمانى قبل الإجماع عليه ، من زيادة كلمة أو أكثر ، وإبدال أخرى بأخرى ، ونقص بعض الكلمات ، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ، ونحن اليوم نمنع من أن يقرأ بها فى الصلاة وغيرها منع تحريم لا منع كراهة ، ولا إشكال فى ذلك » .

جاء فى تفسير أبى حيان ٧٢ / ٢ البحر المحيط : قال تعالى . « وأتموا الحج والعمرة لله » .

قرأ علقمة : « وأقيموا الحج » وقرأ ابن مسعود : « وأقيموا الحج والعمرة للبيت » .